الروابط الفلسطينية انشئت بمبادرة قوى معارضة أو غير معنية بأن تتطابق مواقفها مع مواقف النظام، وخصوصاً في مسألة الحريات الديمقرطية. وتشدّد المؤسسون في مقاومة تدخل أجهزة السلطة في شؤون روابطهم، وفي اختيار قيادات الروابط بالانتخاب المباشر السري بصورة تكاد تكون مثالية، وتجلّى أثر هذه المقاومة وصمودها ونجاعتها في نتائج الانتخابات. ففي كل الدورات الانتخابية جاء الى قيادة الروابط ناس من غير الموالين للنظام، ولم تفلح جهود السلطة في منع وصولهم أو في اسقاطهم في الانتخابات التالية. وعندما تشكّل الاتحاد العام من مجموع الروابط، في العام ١٩٥٩، ظفرت المعارضة بأغلبية كبيرة من مقاعد قيادته، مثلما احتفظت بالاغلبية في قيادات الفروع. وتكرّر الامر في السنوات التالية من عمر الجمهورية العربية المتحدة، وما بعدها.

لا يعني هذا القول ان الامر كان على ما يرام في كل مكان وفي كل تجربة. فقد شهدت الساحات الفلسطينية المشتّتة تجارب علنية من النوع الآخر، نسجت على منوال ما كان يجرى حولها في بلدان اللجوء. فقد انشيء في كل من قطاع غزة وسوريا، في عهد وحدتها مع مصر، اتحاد قومي فلسطيني، على غرار الاتحاد القومي العربي. وعرف الاردن وغيره تكتلات فلسطينية موالية للانظمة ومفتقدة لأسس التنظيم الديمقراطي. بل ان الهيئة العربية العليا لفلسطين، التي تواصل بعض نشاطها بعد النكبة، احتفظت بتشكيلها كما كان عليه قبل العام ١٩٤٨، وتعززت فيها سلطة الرئيس ـ الزعيم، ولم تقم بأي شيء لتعزيز تمثيلها لجمهورها، لا بالانتخابات ولا بغيرها حتى من الوسائل الاولية التي اتبعت في الماضي.

وقد تزامن انشاء الاتحادات العلنية مع انشاء المنظمات السرية التي كانت في عقد الخمسينات كثيرة العدد، وهي كثرة عكست تأثير التشتّت بمقدار ما عكست تعدد الآراء والتيارات، والتي كان أغلبها صغير الحجم. وقد أمكن لعدد من هذه المنظمات ان يستمر ويتطور ويكبر فيشتهر بالاسماء التي عرفت في عقد الستينات. في هذه المنظمات، تباينت اشكال الممارسة حين تعلّق الامر بديمقراطية التنظيم وتفاوتت؛ فكان منها من اعتمد الصيغ التقليدية التي عرفت من قبل، فتشكل حول شخص أو نواة من الاشخاص المقتدرين؛ وقام على أساس الثقة بهم والولاء لهم، ولم يعرف من أشكال الممارسة الديمقراطية الاّ أقلها، وهو صيغة اتخاذ القرارات في القيادة بالتصويت. كما كان منها من تمثّل روح العصر وعرف ممارسات ديمقراطية أرقى، وانْ تأثّرت، جميعها، بمقتضيات السرية، فحال ذلك دون توطّد الممارسة الديمقراطية داخلها، وأدى، بين ما أدّى اليه، الى تغليب الاعتماد على الثقة الشخصية، وتغليب الولاءات المبنية على هذا الاساس. أمّا الناشطون من أعضاء المنظمات السرية في الاتحادات العلنية، فكانوا ملزمين، بالطبع، باتباع الصيغ الديمقراطية المعتمدة في الاتحادات. واذا توقفنا عند تجربة حركة «فتح» الاولى، باعتبارها التنظيم الذي سيصير له أكبر دور في م.ت.ف.، فيجب ان نتذكر ان خبرة معظم مؤسسيها وقادتها اللاحقين حملت، في ما يتعلق بالديمقراطية، تأثيرات من تجربتهم في الاتحادات، وخصوصاً اتحاد الطلاب، ومن تجاربهم الحزبية السابقة على «فتح»، مثلما حملت آثار العمل السري الذي لجؤوا اليه عند تشكيل فصيلهم الجديد، فجاءت الحصيلة خليطاً من هذه التجارب.

صراع الارادات العربية

في هذه الظروف التي تحول فيها التململ الفلسطيني باتجاه بناء الكيان الوطني الجديد الى تيار حازم الارادة، نشأت أوضاع وجد فيها تيار عربي راغب في تحقيق الهدف ذاته لأسباب